في طريق الخلود

في 19 كانون الثاني عام 1967 مات العالم الفيزيائي (جيمس فورد) بمرض السرطان في (لوس أنجيلوس) وهو في السادسة والسبعين وكان قد هيأ نفسه بشكل لم يفعله أي إنسان من قبله ، وفي اللحظة التي تأكد بها موته بدأ فريق مؤلف من ثلاثة أطباء وكيمياويين في إنجاز خطة مفصلة ففي خلال عملية استغرقت ثماني ساعات أفْرغ الأطباء جميع السوائل من جسم العالم الميت وأزالوا الدم ووضعوا بدله محلولاً كيماوياً . ثم بردت الجثة لدرجة التجمد وفي أثناء ذلك بدأ أحد الأطباء بتدليك القلب لكي تبقى خلايا الدماغ حية أكبر مدة ممكنة . وبعد أن أفرغ الدم تماماً بدأ تبريد الجثة إلى درجة حرارة 196 تحت الصفر مئوية ووضعت في ناووس من الفولاذ غير قابل للصدأ وأرسل الناووس إلى مدينة فوينكس في ولاية أريزونا حيث حفظت في مستودع للجثث ذي درجة حرارة منخفضة جداً ومستودع الجثث هذا متوضع بشكل عمودي في بناية تشبه خلية النحل درجة حرارتها تقترب من 200 درجة مئوية تحت الصفر كان الدكتور فورد أول رجل يخضع للتجميد المفرط في العالم وقد دفع ثمن العملية حوالي 000 . 30 دولار أملاً بالخلود فهل هذا العالم الكاليفورني رجل حالم أو هو خيالي يا ترى؟

رجال التبريد المفرط هم مومياءات هذه الأيام:

في عام 1964 نشر العالم الفيزيائي روبرت أتنجر كتابه الذي أثار كثيراً من الجدل وهو (أمل الخلود) ونظريته تقترح تجميد أجسام الأشخاص الذين ماتوا بسبب

مرض لا يمكن شفاؤه ثم إرجاعهم إلى الحياة بمجرد أن يكتشف علاج المرض الذي سبَّب موتهم وقد استقبلت زمرة الأطباء فكرته هذه بتحفظ وشكر يشوبهما الدهشة وهنالك نقطة واحدة تبدو أكيدة وهي أنه يمكن إعادة الكائن الحي إلى الحياة إذا أسقطت درجة الحرارة أثناء عملية التجميد بمعدل مئة درجة مئوية في الدقيقة وإذا كان التبريد سريعاً بهذه النسبة وهنالك سبب وجيه يبرر ذلك وهو أن صدمة البرودة أو السخونة تمنع تشكل بلورات تسبب إتْلافَ جزيئات حيوية وتجعل البروتينات الهامة وجزيئات الأحماض النووية تتجمد بسرعة بحيث لا يتبلور الماء في الأنسجة بل يتحول إلى كتلة تشبه الزجاج وقد استطاع العلماء إعادة حياة النباتات والحيوانات المنوية في الإنسان ولكن لم يستطع أحد حتى الآن أن يعيد الحياة لشخص مبرد تبريداً مفرطاً وليس من الأكيد التمكن من عمل ذلك في المستقبل ومع هذا فهنالك عدة جمعيات تبريدية موجودة في الولايات المتحدة الآن تتبنى عمليات التبريد في فوينيكس أو لونج آيلاند وفي وادي سان فرنسيسكو حيث تحفظ أجسام الأشخاص المبردين وتخزن لقاء إيجار سنوي قدره 700 دولار تقريباً وهكذا مضت حوالي ثلاثة آلاف سنة حين عاد البشر ونشروا ووسّعوا ذلك المجهود الضخم الذي بدأ به الفراعنة.

عندما تصاب الأعصاب بالجنون:

ما الذي جعل المصريين القدماء يعالجون موتاهم بطريقة تجعل بقاياهم محفوظة تماماً تقريباً؟ ما لذي جعلهم يدفنون فراعنتهم ببذخ منقطع النظير لم يكن له مثيل في التاريخ لا قبلهم ولا بعدهم؟ هل كان السبب إيمانهم العميق بالخلود أم الاعتقاد بأن البشرية سوف تستطيع في يوم من الأيام أن تكتشف بشكل علمي السبيل إلى الخلود كما هو الحال اليوم.

إنَّ المصريين الذين عاشوا في عهد المملكة القديمة كانوا دون شك بسطاء وأكثر سذاجة من أولئك الذين عاشوا في المملكة المتوسطة والحديثة ولذا فإنه من المحتمل كما قدمنا أنه خلال القرون أصبح إيمانهم بالمعجزات يتغير وحل محله

الوعي العلمي ومع أن طقوس الدفن ظلت كما هي تقريباً، إلا أن شيئاً ما يجب أن يكونَ قد تغير وهذا الشيء له أكثر من دلالة رمزية واحدة وهنالك مثل يمكن أن يوضح هذه النقطة.

لقد مضت عدة قرون كان الطب في الغرب لا يعترف بعمليّة الوخز بالإبَر التي كان يمارسها الطِّب في الشرق الأقصى لشفاء بعض الأمراض واعتبروه في الغرب نوعاً من الشعوذة والتدجيل على أسوأ تقدير أو كعمل يلفت النظر على أفضل تقدير ولكن في هذه الأيام أصبحت عملية الوخز بالإبر معترفاً بها ومشجعة في أوربا وأميركا؟ كيف حدث ذلك يا ترى؟.

اعتقد الصينيون القدماء أن غرز الإبر في أجزاء معينة من الجسم يطرد الشياطين والأرواح الشريرة التي تسبب الألم ولكن تطورت تلك الطريقة وتمخضت عن نظرية تقول: بأن وخز الإبر (عينوا 360 نقطة من الجسم لوضع الإبر) يسمح بإدخال أو إخراج أي نقص أو زيادة لما يسمّونَه (ين) و(يانغ).

وطبقاً للحكمة الصينية فان «ين» و«يانغ» قوتان طبيعيتان تعتمدان على بعضهما مثل الذكر والأنثى، الضوء والظلام الإبداع والتقبل، السرور والألم هذه القوى الأساسية المتعاقبة حسبما فكر الصينيون القدماء هي السبب الجذري لكل شيء في العالم المحسوس ويمكن أن تظل هذه القوى متوازنة بشكل طبيعي بواسطة وخز الإبر التي تخدم تماماً كالهوائي في الراديو والتلفزيون أو مانعة الصواعق فوق البنايات الشاهقة.

وحتى في هذه الأيام هنالك اختلافات كبيرة بين العلماء حول وخز الإبر فقد بدأ الأطباء والعلماء يهتمون اهتماماً جدّيّاً بهذا الفن الصيني عندما برهن العالم الإنكليزي (هنري هيد) في عام 1983 أنّ الأعضاء الرئيسية تنبه الألم في بعض أجزاء الجسم البعيدة عن ذلك العضو ولكن بعد زمن لوحظت عملية معاكسة تماماً للأولى فإنَّ معالجة بعض أجزاء الجلد أو الجسم كانت لها تأثيرات على فيسيولوجية الأعضاء الرئيسية البعيدة عن تلك الأجزاء من الجلد.

وهكذا فقد توصلنا في هذه الأيام إلى نقطة أصبحت فيها طريقة وخز الإبر مقبولة وجديرة بالتصديق لأنها تمخضت عن نتائج لابد أن تسبب ثورة في جميع فروع الطب وخصوصاً التخدير.

لقد أظهر الدكتور غود فري تشن وان مان من ميشيجين خلال المؤتمر العالمي للتسمم الذي عقد في باريس عام 1973 وكشف تفسيراً علمياً للنتائج المزيلة للألم في عملية وخز الإبر.

ادعى هذا العالم وجود ألياف كثيفة عصبية أطلق عليها اسم ألياف (أ) وهذه محاطة بأغلفة من النخاع وألياف عصبية رقيقة أطلق عليها اسم أليـاف (جـ) وكلاهما متصلان ببعضهما اتصالا وثيقاً داخل النخاع الشوكي وألياف (أ) تنقل المنبهات الخارجية مثل الحرارة أو البرودة أو اللمس إلى الجهاز العصبي بسرعة فائقة وأما ألياف (جـ) فتنقل الإحساس بالألم ولكن ببطء، مثلاً نحن نسحب إصبعنا من المدفئة الساخنة بسرعة دون أن نشعر بالألم فالإحساس بالألم يأتي متأخراً.

وقد ادعى الدكتور مان أيضاً أن الألياف (أ) تؤثر على النخاع الشوكي بطريقة يصبح بها أقل استقبالاً لإشارات الألم الصادرة عن الألياف (جـ) فالألياف (أ) تعطي الإشارة بسرعة الضوء مثلاً بأن كل شيء على ما يرام فإذا فقدت هذه الدوافع مثلاً في حالة رجل مبتورة فإن المريض يقاسي من ألم وهمي ولذلك فان وخز الإبر يمكن أن يساعد في إثارة دافع إخماد ألياف الألم وكبحِها إلى درجة تجعل الألياف (جـ) مسدودة وعاطلة عن العمل تماماً.

فمن الواضح أن ما كان يعتبره الناس لمئات وحتى آلاف السنين كوخز الإبر هو ضد الأرواح الشريرة كان (ودون أن يدرك ذلك الكثير من الناس) مؤسسا على مبادئ علمية. وبنفس الطريقة فمن المحتمل أن المصريين القدماء اكتشفوا واستعملوا أساليب فعالة لحماية قبورهم ضد لصوص المقابر تلك الأساليب والطرق التي عرفوها ولكن دون أن يفهموا مبادئها الأساسية.

إنّ هذا بالطبع ينطبق على الفراعنة الذين كانوا يدفنون بمراسم البذخ والثروة أما الرجل العادي فكان يدفن بشكل بائس كما كان يعيش وبالرغم من أراضي مصر الواسعة فإنّ البلاد كادت تختنق بموتاها لأن الموتى كانوا يدفنون فقط في القطاع الضيق الصالح للزراعة غربي النيل وفي دلتا النيل وكان هنالك سبب وجيه لدفن الموتى في الغرب فقد كان المصريون يعتقدون أن مدخل العالم السفلي كان واقعاً حيث تغيب الشمس خلف رمال الصحراء والهضاب الكلسية.

لقد كانت مراسم الدفن بالنسبة للفقراء دون أي عامل مشترك بينها وبين طقوس الدفن الباذخة المكلفة للأغنياء فحفظ الجسد للأبدية كان مقصوراً على النبلاء والفراعنة فقط وكان الرجل المصري العادي البسيط يدفن في زمن المملكة الحديثة بنفس الطريقة التي دفن بها أجداده قبل حوالي ثلاثة آلاف عام وحتى هذه الأيام نجد قبوراً في رمال الصحراء الساخنة حيث يضطجع الموتى على جوانبهم اليسرى (كوضع الجنين تماماً) والساقان مثبتان وهما مغطيان بحصير واسع من الألياف وهذه الأجساد قد ظلت سالمة تقاوم فعل الزمن دون أي تحنيط وذلك بفضل قلة الرطوبة في الصحراء ولكن المعتقدات الأساسية حول الموت هي بين الفقراء والأغنياء. وحتى أفقر الفلاحين كان يدفن ومعه جرة من الفخار بها الطعام والشراب وأسلحة بسيطة وأدوات زينة وعندما نقارن بين القبور القديمة نجد أنه عبر السنين الطويلة أصبحت القبور تحفر أعمق وأعمق وذلك لحماية الموتى من ابن آوى وقد تطورت الحفر البدائية إلى حفر مستطيلة وبعد ذلك إلى مقصورات وأضيفت مقاصير جانبية كغرف للخزن وللهدايا التي كانت تقدم للموتى وأخيراً أصبح القبر ظاهراً للعيان وذلك ببناء جدار حوله وملء المساحة بمواد البناء وهكذا أوجدت أنصاب مستطيلة فوق القبر وهذه كانت تدعى المصطبة. وكانت المصاطب تختلف في حجومها حسب ثروة صاحبها وأهميَّتِه وكان الفراعنة من الأسرة الأولى والثانية (2850 ـ 2700 ق.م) يأمرون ببناء مصاطب لهم في أبيدوس.

ثم بدأ تركيب بناء المصطبة يتطور إلى نوع من الأهرامات المدرجة كالهرم الذي بناه المهندس أمنحوتب لسيِّده الفرعون (زوسر) من الأسرة الثالثة حوالي 2650ق . م وذلك بوضع مصاطب متدرجة في الكبر بعضها فوق بعض .

لم يكن القبر مكاناً لوضع الجثة فحسب ولكنه كان موطناً (للكا) وهي الروح التي كانت تحمي الموتى وكان يوضع أولاً باب زائف عليه اسم الميت وصلوات مختلفة وتعاويذ سحرية وفيما بعد أضيفت غرف خلف الباب وكانت الأبواب توضع دائماً على الجانب الشرقي وهي تواجه الغرب ثم تطورت الغرف والممرات خلفها إلى تيه منتظم .

صانعوا المومياء:

لم تظهر أشكال الدفن التي تتناسب مع الإيمان الديني المصري وحساسيته إلا خلال الأسرة الخامسة حوالي 2400 ق . م وهي مراسم التحنيط أي محاولة الإبقاء على جسم الميت بمظهره الطبيعي . فاهتمام المؤرخين وعلماء الآثار والفيزيائيين والكيماويين كان ينصبّ على تقنية التحنيط بعد الدفن . والحقيقة أن تفاصيل التحنيط لم تكتشف حتى الآن رغم استخدام جميع الأدوات العلمية الموجودة والأوصاف الكثيرة التي خلفها المغامرون والمستكشفون وكان أول وأفضل شخص معروف واجه أسرار التحنيط هو المؤرخ اليوناني (هيرودوتس) الذي سافر إلى مصر في القرن الخامس ق . م وكانت تقاريره مفصلة ومع أنها لم تكن صحيحة تماماً إلا أنها ممتعة تاريخياً إذ يقول «هنالك محنِّطون فعندما تجلب لهم الجثة كانوا يظهرون لأقارب الميت نماذج من المومياءات المحنطة مدعين أن تحنيطهم هو أفضل تحنيط ما عدا ما عمله الآلهة أنفسهم وإنيِّ أظن أن من الخطأ ذكر أسماء الآلهة بهذا الخصوص . ثم كان المحنطون يرون الأقارب نماذج من التحنيط أرخص وأخيراً نماذج ثالثة أقل كلفة من تلك وكان المحنط يفسر كل شيء وبعد ذلك يطلب معرفة أي طريقة يريدها الأقارب لميتهم وكان الأشخاص الذين يجلبون الجثة يصرِّحون بالثمن الذي باستطاعتهم دفعة ثم يتركون المكان ويبقى المحنطون في دار التحنيط وكان أغلى أنواع التحنيط وأفضلها هي الآتية :

يسحب الدماغ أولاً من الأنف بواسطة سنارة حديدية مع أنه كانت تستعمل محاليل أيضاً لهذا الغرض. وبعد ذلك يشق البطن بواسطة سكين حادة مصنوعة من الصوان من الحبشة وتنزع الأمعاء والأعضاء الداخلية ويغسل داخل الجسم بواسطة نبيذ التمر ويفرك بواسطة مادة عطرية مطحونة ويحفظ الجسم من التلف بوضعه في كربونات الصوديوم المهدرجة (محلول النطرون) لمدة سبعين يوماً ولا يجوز أن تبقى الجثة في كربونات الصودا أكثر من سبعين يوماً وبعد ذلك تغسل الجثة وتلف بأربطة من الكتان وتلبس بنوع من محلول المطاط الذي كان يستعمله المصريون بدلاً من الغراء وفي أثناء ذلك يكون التابوت قد أنجز صنعه وتوضع الجثة في التابوت وتخزن وهي واقفةٌ بشكل عمودي في بيت حفظ الموتى وهذه طريقة التحنيط الغالية الثمن».

وأما الذين لا يستطيعون أن يدفعوا كثيراً من المال فكانت جثث أمواتهم تحنط بالشكل التالي:

لا تفتح الجثة لإخراج الأحشاء وبدلاً عن ذلك يملأ جوف البطن بزيت خشب الأرز وهذا الزيت يحقن إلى الجوف من خلال الدبر بطريقة لا تجعله يخرج ثانية. وبعد ذلك يقضي الجسم السبعين يوماً الإجبارية منقوعاً في كربونات الصوديوم المهدرجة (النطرون) والزيت له تأثير قوي جداً حتى إنه يزيل اللحم وكل الأحشاء بحيث يبقى الجلد والعظم فقط وعندما تتم هذه العمليات تعاد الجثة إلى أصحابها دون معالجة أكثر.

أما الطريقة الثالثة للتحنيط التي يستعملها الفقراء فهي كما يلي:

يغسل التجويف البطني بواسطة مسهل ثم ينظف ويملح ثم يضع المحنط الجثة في (النطرون) لمدة سبعين يوماً قبل أن يطلب من عائلة المتوفى أن تأتي لأخذ الجثة.

وأما (ديودوروس سيكوليس) الذي أخبر عن نفس العملية بعد حوالي 400 سنة فهو يعطينا المعلومات الإضافية الآتية:

عندما يموت شخص ما في مصر ينثر أصدقاؤه وأقاربه التراب على رأسه وأثناء الاحتفال الجنائزي يمشون وهم ينوحون ويندبون خلال المدينة وفي أثناء تلك

الفترة لا يغتسلون ولا يشربون الخمر ويمتنعون عن كل المسرات حتى إنهم لا يلبسون أي ملابس جميلة.

هنالك ثلاثة أنواع من الدفن: الدفن المكلف الغالي والوسط والمتواضع فالطريقة الأولى تكلف وزنه من الفضة أما الثانية فتكلف أقل من ذلك وأما الثالثة فهي رخيصة جداً ولا تكاد تكلف شيئاً ويتعلم المحنطون فنهم من آبائهم وأجدادهم ويأتون إلى بيت المتوفَّى ومعهم صور لعدة مومياءات ويطلبون من أهل المتوفى أن يختاروا الطريقة التي يحنطون بها ميتهم وعندما يصلون إلى اتفاق يجلب الميت إلى المحنط. وحالما تمدد الجثة يضع رجل يدعى الموجه علامة على الخاصرة اليسرى من الجسم ليشير إلى مكان فتح الشق في الجسم ثم يأتي الرجل المدعو (المشرح) ومعه سكين مصنوعة من الصوان من بلاد الحبشة ويشق جدار البطن حسب تعليمات الموجه بالضبط وبعد ذلك يهرب بعيداً ويبدأ كل من كان حاضراً بمطاردته وقذفه بالحجارة ولعنه بسبب ما قد فعل، لأن المصريين يكرهون أي شخص يسبب جرحاً أو أي ضرر لشخص آخر ومن ناحية أخرى نجد المحنطين يتمتعون بالكرامة والاحترام فهم في نفس مستوى الكهنة ويسمح لهم بالدخول إلى المعبد كرجال مقدسين دون أن يعترض سبيلهم أي إنسان.

وعندما يتجمع المحنطون حول الجثة لإعدادها يضع واحد منهم يده خلال الشق متجهاً إلى الصدر وينتزع القلب والكليتين ثم يبدأ شخص آخر بتنظيف الأعضاء الداخلية ويضمِّخها بالعطور ونبيذ التمر وبعد أن تغسل الجثة مدة ثلاثين يوماً بزيت خشب الأرز وتعالج بالمر وهو (صمغ راتنجي ذو رائحة زكية) والقرفة وهذا يبقي الجثة مدة طويلة من الزمن يفوح منها شذا عطر زكي عبق.

ثم تعاد الجثث إلى أصحابها وتظهر العناية الفائقة بإعداد هذه الجثث لدرجة أن أهداب العينين والحواجب تبقى سالمة ولا يتغير المظهر الخارجي للجسم وتبقى تعابير الوجه كما هي بل يمكن معرفتها فوراً. ويحفظ كثير من المصريين جثث

أجدادهم في مقاصير خاصة حتى يستطع الخلف أن يروا السلف وعندما يرى الرجال المسنون تعابير وجوه أجدادهم ويدرسونَها يشعرون كأن هنالك أناساً معهم يعيشون العصور التي عاشوها.

النتائج الأخيرة:

هنالك رجل واحد درس تقنيات التحنيط في العصر الحديث وهو الدكتور (زكي إسكندر) مدير دائرة الآثار في القاهرة وقد كتب يقول بأن الدماغ كان يخرج أولاً من الجمجمة خلال حكم الأسرة الثامنة عشرة (ابتداء من 1570 ق. م) واستعمل الإزميل والمطرقة للقطع خلال الجدار الأنفي. وبعد ذلك يسحب الدماغ من خلال الأنف بواسطة سنارة محماة بالنار وكان إخراج الدماغ بواسطة الإزميل من جدار الجمجمة قلما يحدث وأما القلب فبما أن المصريين اعتقدوا بأنه مركز الروح والعواطف فلم يعاملوه كبقية الأعضاء وذلك لأنه سوف يوزن أثناء يوم الدينونة والحساب وكانوا يستبدلونه أحياناً بجُعَلٍ مقدس.

وأما عملية التحنيط الحقيقية حسب رأي الدكتور إسكندر فهي تتطابق تماماً مع ما ذكره هيرودوتس. ولا مندوحة لنا من أن نذكر أن الجثة كانت تُحشى أثناء عملية التجفيف وذلك لتجنب تقلص الجثة مع ما يرافقه من تشويه في شكلها وكانت الحشائش والتبن تفضل كمواد للحشو ولكن غالباً ما استعمل رمل الصحراء لهذه الغاية. وقد استعملت جميع وسائل التجميل لإعداد الجثث فالحليب والنبيذ والمصطكي (المسكة) وكذلك زيت خشب الأرز استعملت لإضفاء بعض اللون والمرونة على الجلد وكانت الوجنتان تنفخان بوضع كرات الكتان داخل الفَمِ وكذلك محجر العينين وكان الأنف يسد بكتل من الراتنج.

ولم تكن تقنية التحنيط محصورة بالبشر فحسب فتحنيط الحيوانات كانت له أهميته عند المصريين القدماء كما هو مدون في وثائق ورق بردي فينّا رقم 27 وهذا

النص المكتوب بمزيج من اللغة الديموطيقية والهيراطيقية يمدنا بتفاصيل دقيقة عن طقوس دفن العجل أبيس المقدس.

وكانت الورقة هذه مكتوبة على كلا الجانبين بخطوط مختلفة ويظن أنها أتت من ممفيس وكتبت في عصر بطليموس (من 250 ـ 150ق.م) وتحتوي على تعليمات دقيقة للكهنة والقائمين على شؤون الموتى حول تحنيط وعمل مومياء للحيوانات.

يجب عليهم أن يمدوا حصيراً من البابيروس من مصر العليا أمامه ثم يوضع غطاء على هذا الحصير ثم يسيرون خلف مدير الطقوس والكهنة المرتلين الذين يجب أن يكونوا حليقي الذقون ومرتدين أفخر الثياب والنعال بعد أن يكونوا قد اغتسلوا ويجب أن يمشوا إلى المعبد وهم يندبون ويصرون أسنانهم وبعد ذلك يضعون أربطة حول رقابهم ويظهرون الحزن والأسى لموت إله البيت الكبير وكانت تمد حصير من البابيروس أمامَ الكهنة المرتلين وعلى رئيس الطقوس أن يقرر ما هي الأشياء التي يريدها لتجلب له إلى المعبد. وبين هذه الأشياء هنالك لوح كانت توضع عليه المومياء البشرية فيما بعد وبعض الحجارة والكتان وأما عملية التحنيط الفعلية فقد وصفت كما يلي:

وبعد ذلك على رئيس الطقوس والكهنة المرتلين أن يبدؤوا بتحضير القماش والأغطية والأربطة التي يحتاجونها للرأس والأطراف وكانت اللفافتان بعرض ست أصابع وسمك أصبع ونصف وأما غطاء الرأس فيجب أن يكون مصنوعاً من ربائط جديدة أربع علوية وأربع سفلية وطولها سبعة أذرع والعرض ثلثا الطول وبعد ذلك على رئيس الطقوس والكهنة أن يذهبوا إلى المكان حيث يوجد به الإله (الثور أبيس) وعليهم أن يضعوا القماش بين رجلي الإله الأماميتين ممتدة إلى الكتف الأيمن وتخرج من تحت الكتف الأيسر وبعد ذلك تقطع الربائط وتسحب خلال الكتف الأيسر حتى تصل وتخرج من تحت الكتف الأيمن.

ومن الغرابة بمكان أن جسم الثور الميت يدهن فقط بعد أن يلف فخذه بالربائط ويؤكدون على أن المراهم يجب أن يسمح لها بالوصول إلى الجسم.

وبعد ذلك يجب أن يجلس رجل أمام رئيس الطقوس وعليه أن يفتح جمجمة الإله ويدفع يده داخل جمجمته بالقدر الذي تصل إليه وعليه أن يأخذ ما يجده داخل الجمجمة وبعد ذلك يحشو الجمجمة ويجب على الرئيس أن يهتم كثيراً بالمواد التي يخرجها الكهنة من الجسم وبعد ذلك عليه أن يخلع نابي الثور في الفك الأسفل فضلاً عن السنَّين المجاورين للنابين ويجب أن يحشو الشمع والمر والعطور في الجمجمة حتى لا يقفل الفكان ويجب وضع كيس يحتوي على المر تحت لسانه بينما يغطى اللسان بمادة مشبعة بالمراهم وتلف ثلاث ربائط حول الرأس وتلف إحدى هذه الربائط على قمة الرأس والأخرى حول الوجه وبعد ذلك توضع ثلاث قطع من القماش حول القصبة الهوائية والمري وقطعتان على اللثَّة وقطعتان أخريان حول الخدين وأما داخل الرأس فيجب أن توضع وسائد صغيرة وبعد ذلك يقف رجل أمام العينين وعليه أن يحشو داخل العينين ويدهنهما بالمراهم والزيت ويضع القماش عليهما، رباطان لكل عين وأخيراً يجب أن يخرج كل شيء من الأنف ويحشو داخله بالكتان.

وبعد لف رأس الثور تصف ورقة البردي كيفية لف القرنين وبعد ذلك يقف أحد الكهنة المرتلين أمام تجويف البطن ويغطي جسم الثور الميت بقطعة كبيرة من القماش ويختفي تحتها وبعد ذلك تتابع تعليمات التحنيط كما يلي:

عندما يدخل الكاهن المرتل تحت الغطاء الموضوع فوق تجويف البطن عليه أن يخرج كل ما يجده في البطن ويجب أن يمد يديه إلى أبعد ما يستطيع وبعد ذلك عليه أن ينظف التجويف بالماء ويحشوه بالقماش.

وأخيراً يوقف الثور المحشو بشكل عادي ولعمل ذلك يحرك لوح الخشب بين رجليه وتربط الرأس والرقبة عالياً حتى يأخذ الحيوان وضعاً طبيعياً في الوقوف ثم يرفع الثور (أبيس) وهو في هذا الوضع إلى الضريح المقدس الذي يخدم كتابوت وعندئذ فقط يمكن أن تبدأ مراسيم الدفن وأثناء تلك المراسيم يلبس جميع الكهنة وخدم الميت الملابس ذات اللون الأحمر.

العقاقير من بلاد (بونت):

إننا في هذه الأيام نعرف الكثير عن تركيب الأجزاء المكونة للعقاقير التي استعملت في التحنيط ولكن لا نعرف كل شيء فمثلاً عقاقير الراتنج والنطرون (ماءات نيترات الصوديوم) كثيراً ما تذكر ويتكرر ذكرها في نصوص الأهرامات وكتاب الموتى ومختلف أوراق البردي.

لم تكن عقاقير الراتنج تستعمل في حالتها الطبيعية فقط ولكن بأشكال عديدة أخرى إذ نجد أوراق بردي (هاريس) تقول: «وفي باحتك العظيمة في ممفيس هنالك أشجار المر والعطور المغروسة وهي التي جلبتها يداي من (بونت) لأجْعَلَ وجهك المقدس يتأجج بالأنوار في الصباح» وهنالك ما يشبه هذه الورقة بين أوراق البردي الأخرى حيث يذكر (المر) من بلاد بونت ليس فقط الشجرة بل ما ينتج منها من راتنج مصنع كما تذكر أيضاً زيوت خشب الأرز والبخور المستوردة.

إنَّ بلاد بونت هي من أعظم البلدان القديمة المحاطة بهالة من الأسرار فقد رحل إليها الفينيقيون والمصريون القدماء وتاجروا هناك بقدر ما يستطيعون وذلك بسبب وفرة ما فيها من مواد خام ثمينة مثل زيوت التربنتين والعطور والعاج والذهب والسموم والفلزات التي كانت تؤخذ من الأقزام من أهالي البلاد عنوة وإنَّ بلاد (بونت) بلاد الأسرار والأقزام لم تكن خرافة بل كانت موجودة حقاً وربما تشمل ما يعرف الآن بالشاطئ الصومالي لإفريقيَّة الشرقية وتظهر الصور في قبور طيبة كيف كانت أشجار البخور والأرز والمر تقتلع من بلاد (بونت) وتوضع في جرار فخارية وتجر لمسافات مئات الأميال خلال الصحراء وكانت تشبك في مقابض الجرار بعض القضبان وبذلك يستطيع العبيد حمل هذه الجرار وقد وصلت عمليات نقل الأشجار إلى ذروتها خلال حكم الأسرة الثامنة عشرة وخاصة في زمن حكم الملكة حتشبسوت وفي زمن الفرعون رعمسيس الثالث من الأسرة العشرين، كانت أشجار (المر) تزرع في طيبة ولكنها لم تكن لتزدهر وبعد ولادة السيد المسيح علق المؤرخ الروماني

(بليني) بأن أشجار (المر) قد انحطت في مصر وقد استعمل (بليني) كلمة انحطت بمعناها الأصلي وهو (تغيرت) والتي يفسرها العالم المدرب بكلمة (فسدت) إذ أنه في هذا الزمن كانت شجرة (المر) قد تحولت إلى مجرد (دغلة) كثيفة الأغصان.

وكانت العقاقير ذات الروائح الزكية تستعمل كالراتنج الصلب لإعداد المومياء ويستعمل دخانها خلال مراسم التحنيط. وأما وضع البخور و(المر) في أفواه الموتى فكان لتنظيف الميت والراتنج العطر كان يستعمل لتطمين الميت بأنه سوف يجد ما يأكله خلال رحلته الطويلة إلى الأبدية والحياة بعد الموت وكان المصريون يعتقدون أن البخور والراتنج لهما من الصفات والقوى ما تعجز عنه (ألكا) المسؤولة عن الموتى. وأنَّ دخان الراتنج العطر يجعل الموتى يتغلبون على قوة الجاذبية الأرضية فهي تحرّرهم من العبودية الأرضية فقد علقت ورقات البردي تقول:

إنّهم يسحبونه إلى السماء على أعمدة من الدخان ذي الرائحة الإلهية العطرة وكانت الآلهة (نوت) وتيفنوت تسحب الأموات إلى الأعلى على السحب ذات الشذا العطر بعيداً عن المادة حيث عالَم الأرواح.

وقد عمل (ألفرد لوكاس) وهو الصيدلي الرسمي الحكومي الذي اشترك في فتح مومياء توت عنخ أمون، عمل هذا الصيدلي في تصنيف أنواع البخور فقد أعتقد أنه بالإضافة إلى نبات البخور الذي نعرفه اليوم فقد كان المصريون يستعملون أيضاً (المر) و(البلسم) وغيرها وفي كتابه عن النباتات قدم المؤلف (ثيوفراستوس) النقطة التالية:

في الوقت الذي كانت أنواع الراتنج المختلفة تستخدم في النواحي الروحية والمثالية والإيحاء الذاتي بالنسبة لمراسيم الدفن الدينية إلا أننا نجد أن النطرون وقد كان عنصراً أساسياً لتجفيف الأجسام وبالتالي حفظها من التلف والنطرون يوجد بشكل طبيعي في البحر فماءات كربونات الصوديوم هي أساس مركبات مختلفة تشمل حامض الهايدر كلوريك والصودا الكاوية ويوجد النطرون في ثلاثة أمكنة في مصر فعلى بعد سبعين كيلو متراً غرب القاهرة وفي الصحراء الليبية يقع وادي النطرون. وفي أثناء فيضان النيل تتكون

بحيرات صغيرة هناك وماء هذه البحيرات يتبخر حالما ينحسر الفيضان فتتكون طبقة بيضاء على الرمل وهذه الطبقة عرفها القاطنون هناك باسم النطرون منذ المملكة القديمة وقد ذكر لوكاس أن النطرون يوجد أيضاً في أقليم البحيرة في مصر السفلى وفي (أدفو) في مصر العليا وهذه المناطق لها أسماء مختلفة في النصوص القديمة فهنالك ورقة بردي تتكلم عن نطرون الجنوب وهذا من الواضح أنه يعني النطرون المجلوب من (أدفو).

وكما ذكر هيرودتس وكثير غيره فإنّ الموتى في مصر القديمة كانوا يوضعون في النطرون لمدة سبعين يوماً لتجفيف الجسم ولكن بعض المراقبين يذكرون أن الفترة كانت أربعين يوماً وهذا الرقم أقرب إلى الحقيقة طبقاً للمكتشفات الحديثة ولكن إعداد الجثة كان يأخذ وقتاً أكثر فقد مضت (272) يوماً تقريباً بين موت الملكة ميريس أنخ وعملية دفنها وفي بداية المملكة القديمة لم تجر العادة بأن تزال الأعضاء الداخلية والأحشاء ولكن خلال الأسرة الثالثة بدأت تلك العادة تستحكم ولكنها ضعفت واندثرت أثناء المملكة المتوسطة وبدلاً من ذلك كانت الجثة تحقن بمحلول التربنتين من الدبر ويبقى ذلك المحلول في الجسم عدة أيام وعندما يسمح لتلك السوائل بالخروج كانت تخرج معها الأحشاء الداخلية الضعيفة التي تتآكل بفعل التربنتين.

وقد استعملت كلا الطريقتين في المملكة الحديثة مع أنه كانت تفضل طريقة الجراحة وذلك لأنها أنظف وقد وصل فن التحنيط إلى أقصى درجة من الكمال خلال الأسرة الثامنة عشرة.

موكب الموتى على نهر النيل:

عند إتمام التحنيط كانت الجثة توضع في تابوت، وفي المملكة القديمة كان التابوت عبارة عن ناووس خشبي أو حجري بسيط وفيما بعد أصبح الناووس يزين بالأحرف الهيروغليفية والصور وكانت تظهر عينان تزينان القسم العلوي من التابوت وهنالك شق لدخول (ألكا) وهي التي تحافظ على الموتى وهنالك أبواب رمزية كاذبة على جانبي التابوت وهي لفائدة (ألكا) أيضاً وفيما بعد غطيت التوابيت برقيً وتعاويذ للموتى مما

يدعى (تقمص الأرواح) فقد كان يعطى للموتى فُرَصٌ كثيرة للتقمص وسرعان ما أصبح من الصعب كتابة جميع أنواع التقمص على التابوت وهكذا أصبح من الواجب تدوينها على أوراق البردي التي كانت توضع في التابوت وهذا هو كتاب الموتى الشهير.

وكانت المخطوطات تطلب العون من الآلهة أنوبيس وأوزيريس ونات وإيزيس ولكن فوق الجميع: من أطفال حورس الأربعة وكل هذه الطلبات كانت لحماية الموتى وكان (حورس) هو الذي يفتح فم أوزيرس حتى يستطيع أن يعاود الطعام والكلام وكان من المفروض أن يقوم أطفال حورس بحفظ الموتى وحمايتهم من الجوع والعطش وبعد أن توضع المومياء في التابوت وبعد أن يعد القبر الصخري أو الترابي كانت تقام طقوس جنائزية خاصة فالموسرون الذين يستطيعون دفع المال كانوا يرتبون أمورهم أثناء حياتهم بأن يدفنوا في مدينة (أوزيريس) المقدسة وهي مدينة أبيدوس ولكن كان الآخرون يستطيعون أن يعملوا قبراً كاذباً مزيفا في أبيدوس أو أن ينصبوا شاهدة قبر فقط هناك وكانت العادة هي حمل المومياءات إلى أبيدوس حيث يشترك أهلهم في تقديم الضحايا إلى أوزيريس ثم يعودون بهم ويدفنون في مدنهم وقراهم.

وكان موكب الجنازة يبدأ من الضفة الشرقية للنيل حيث يوضع التابوت في قارب مسطح متخم بالأزهار وفي وسطه مظلة وتجلس زوجة وبنات المتوفى تحت المظلة وصدورهن عارية وهن على جانبي التابوت يصرخن ويذرفن الدموع بينما كان كاهن الموتى وعلى كتفيه جلد فهد يصب العطور والبخور فوق الجثة.

وأمام هذا القارب يسير قارب صغير فيه أحد أقارب الميت الذكور وهو يصيح عبر عباب النيل قائلاً لقائد دفة القارب: أدر القارب إلى الغرب إلى أرض العدالة إنَّ النساء في القارب يبكين ويولولن، سيروا بسلام إلى الغرب أيها الميت المحبوب تقدم بسلام، عند يوم الدينونة سوف نراك مرة ثانية، انظر إنك تسير إلى الأرض التي يختلط بها الرجال.

إن عدد القوارب التي ترافق الميت وتشترك في العبور تختلف حسب عدد أقارب الميت وأهميته، عندما كان القارب المسطح الذي يحمل الميت على ظهره يصل

إلى المقبرة تبدأ أربع حيوانات بجره إلى المقبرة حتى يلتحق بآبائه وأمهاته وحتى يرحب به أسياد مدينة الموتى.

وفي هذا الموكب المسرحي الشاذ الغريب يظهر البطل وهو كاهن يدعى (سم) يظل راقداً في القبو وكله أربطة كالمومياء حتى تصل الجنازة إلى القبر وعندما يوقظُه رجلان ينهض وسط صيحاتٍ احتفاليّة معقّدة ويبدأ بإتمام طقوس الجنازة بفتح الفم والعينين باستعمال إصبعه الخنصر وهذا العمل يسمح للميت بالرؤية وتناول الطعام مرة ثانية وهما الشرطان الأساسيان اللذان يتطلبهما للخلود.

بقي مظهر واحد من مظاهر الطقوس الدينية القاسية وهو أنه حالما كان النادبون يودعون الميت لينصرفوا تقطع الرجل الأمامية لعجل حي وهذه العادة التي لم يفسر فحواها ولا معناها تنعكس في الصور المرسومة على الجدران التي غالباً ما يظهر بها عجل بثلاث أرجل واقف في وسط قطيع من مواشٍ.

إنَّ مجرد التفكير أن الميت خلال رحلته إلى العالم السفلي سوف يقاسي من الجوع كان مؤلماً بالنسبة للمصريين القدماء وتفسر معنى وجود نماذج من الإوز المشوي والخبز أو ذنب الثور المصنوع من الخشب أو المرمر التي كانت توضع في القبر.

وبنفس اللوعة كان شعور الرجل المصري عندما يفكر أنه سيموت دون أن يعد لنفسه مكاناً للدفن أو أنه سوف يموت غريبا عن وطنه فأولئك الذين كانوا يقتلون في الحرب أو خلال رحلات الاستكشاف خلال بلاد النوبة أو في البحر الأحمر كان عليهم أن يعتمدوا على أصدقائهم وأقاربهم لإرجاعهم إلى الوطن.

تفاهة القبر:

كان النبلاء المصريون يبدؤون ببناء قبورهم وهم ما يزالون شباباً وحالما ينتهي التصميم المعماري كان صاحب القبر يأمر بعمل رسوم له ولعائلته على الجدران. وكان هذا العمل غالباً صعباً وذلك لأن علاقات القرابة فضلاً عن المراتب والمنجزات كانت تميل للتغير خلال حياة الإنسان ولذا فقد كان بناة القبور يتركون فسحات أمام

المالك لكي يكتبوا أسماء جديدة وهذه الفسحات كثيراً ما كانت تملأ في الوقت المناسب. ومثل هذه الفسحات كانت تروي قصصا بليغة. فمثلاً كان تشاميت المسؤول عن أهراء الحبوب في زمن الفرعون أمنحوتب الثالث قد أوصى ببناء قبر له غرب طيبة وكرجل ذي امتياز ومرتبة وشرف أراد أن يتم القبر أثناء حياته ومع أنه كان يملك عدداً من الحريم تناسب المقام إلا أنه لم يكن قد اختار لنفسه زوجة فقد ترك فسحة لاسم عروسه المستقبلية ليتبع الكلمة التي كتبها وهي (زوجتي العزيزة أو سيدة المنزل) إلا أن الاسم لم يكتب أبداً فقد مات تشاميت قبل أن يقرر اسم رفيقة حياته..

كان الموت مكلفاً في مصر وقد وجد الكثيرون بما فيهم ضباط البلاط أنفسهم عاجزين عن تحمل تلك النفقات فبدؤوا يستولون على قبور عائلات قديمة قد اندثرت فدهنت رسومات جديدة وغطيت الرسومات النافرة بالآجرّ. وفي بعض الأحيان كان الفرعون يكافئ بعض فقراء الموظفين بمنحهم قبوراً من لدنه. ونحن نعلم أن الفرعون منقرع عاش حوالي (2500 ق.م) وهو الذي شيد له أصغر هرم من ثلاثة الأهرام في الجيزة، هذا الفرعون أعار رجلاً يدعى ديبهن (وهو أحد موظفي القصر) خمسين عاملاً ملكياً حتى يستطيع أن يجهّزَ قبوره. وأما الفرعون ساحور حوالي 2480 ق.م فقد قدم باباً صوريّاً مكلفاً لطبيبه الخاص وهو (ناشن ساشمت) لاستعمال (كا) الطبيب ومع ذلك فقد أصبحت هذه الهدية الصورية سبباً في جعل قبر الطبيب الجيد يبدو حقيراً. إن شعبا يهتم هذا الاهتمام بمراسم الدفن المبجلة الجديدة لموتاه لاشك بأنه يقلق حول قضية حفظ هذه القبور ومحتوياتها الثمينة وكما رأينا فقد أوكلت هذه المهمة إلى منظمي احتفالات الدفن أي الكهنة وكما ترى لعنة الفراعنة فإنَّ هؤلاء الكهنة جديرون بهذه الثقة.